أفراح السماء
بالخاطئات التائبات

تائبين * بائسة * مرثا

يوسف حبيب

١٩٧٧

مقدمة

هذه قصص متنوعة لخاطئات سرن قديسات ، تركن حياتهن الأولى وسلكن طريق التوبة والسهر والصوم والصلاة والانسحاق والدموع ، فقبلهن المتحنن على جنس البشر كعظيم رحمته — انه لا يرفض قط تائباً رجع اليه وألبسهن الحلة الأولى وذبح لهن العجل المسمن .

تتحول أحزان السماء إلى أفراح وتهليل حسب ماهو مكتوب « يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لايحتاجون إلى توبة » ، وتبتهج صفوف القديسين والملائكة برجوع الخطاة الذين أتوا لرحمة يسوع الغير محدودة ولا تزال مائدة الفرح والابتهاج مهيأة والعجل المسمن مذبوحاً ولأجل ذلك يقول الكتاب « ينبغى لنا أن نأكل ونفرح » .

هذا الفرح الذى لما رام أشعياء النبى وصفه لم يجد شيئاً يشبهه به أفضل من قوله : « لأنه كما يتزوج الشاب عذراء . . . وكسفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك » أش ٦٢ : ٥ ، وصف النبى فى نبوته آلام السيد المسيح بقوله ، أما الرب

فسر بأن يسحقه بالحزن، وقوله «مسحوق لأجل آثامنا ومجروح لأجل معاصينا» ، ومثل خروف سيق إلى الذبح وكشاة صامتة أمام جازيها ... فاذا تبنا إليه كيف لا يهبنا كل شيء ؟!!

ما أعظم الفرح والسرور الذى يكون فى السماء برجوعنا وما أجزل الكرامة التى تنالها بعودتنا لأبينا .

وما أبهظ الأجر الذى يتقاضاه ابليس منا إذا استمرينا فى الخطية وبعدنا عن ابينا .

أتحتقر ذلك المجد الذى وصفه الكتاب المقدس ؟ «... مالم ترء عين وما لم تسمع به أذن وما لم يخطر على قلب بشر ....»

ان عدو الخير يروم أن يعدمنا ميراث ملكوت السموات إذ تنفصل عن الآب وعن الأحضان الابراهيمية المقدسة ونلقى فى العذاب الابدى المعد لإبليس وجنوده .

انه يروم ان يفترس خراف المسيح ويبددها ويحاول أن يستقطنا فى الخطية كل يوم ويفصلنا عن الكرمة الحقيقية فنجف ونسقط ونكون أشقى جميع الناس وتدهمنا المصائب .

فالى متى نستمع لمشورته ونؤجل توبتنا !!

لما أخطأ آدم ابتعد عن الله فاختبأ وامتلأ خزياً وستر خزيه بأوراق التين وصار يندب ذاته منتحباً ، ولما أخطأ شمشون فارقته قوته للحال وأصبح أعمى مكبلا بالقيود وطفق يدير حجر الرحى مثل حيوان ، وأخطأ داود النبى ليلة فبكى كل ليلة تحولت حياته إلى أحزان، امتزج خبزه بالدموع ، وبدموعه كان يبل فراشه .

ويضع التاريخ أمام أعيننا أمثلة طاهرة عن قديسين وقديسات تركوا خطاياهم مثل مريم المصرية ، مريم التائبة ، الشهيدة أفدوكيا ... ، يعقوب الجاهد ، القديس أنبا موسى .. هؤلاء وغيرهم عرفوا خطاياهم وندبوها ، أما نحن فلا نحس الآن بثقل خطايانا ولا نتوب عنها .

ان حالة الخاطىء تستوجب النوح والبكاء ذلك انه ينفصل عن الله تعالى مصدر الخير والبركات ومعطى الحياة ، فيصير عدواً لله مبغضاً له بدلا من أن يكون صديقاً وحبيباً بل ابناً كما أنه يكون عدواً للناس .

لما اخطأ الإنسان أصبح له جملة أعداء من البشر ومن

الوحوش الضارية والبهائم والدبابات، وحوله حشرات عديدة سامة تريد الفتك به .

يقول فى ذلك القديس باسيليوس الكبير : « انه قبل المخالفة فى الفردوس لم يكن فى الورد شوك ولا فى الحيـــات سم » . ويهمل الملائكة الخاطىء ويتركونه لانه كما يقول الكتاب « ملاك الرب حال حول خائفيه وينجيهم ... » فمن يكون مع الخاطىء إذن ليخلصه من الاخطار الوقتيه الحاضرة والاهوال والشدائد الابدية الآتية ؟

يقول القديس باسيليوس الكبير أيضاً ، ان من أسخط ملاكه الحارس له وطرده مبعداً إياه بخطاياه ، يكون الخطر المعرض له أشبه بالخطر الذى يتعرض له مركب خلا من ربان يقوده وهو فى وسط الامواج المتلاطمة والرياح الشديدة والزوابع المخيفة والعواصف العنيفة ، مثل خروف فى أرض كلها صخور وليس هناك راع يرشده أو كطفل أدركه الظلام ولا معين يأخذ بيده ..

ويقول القديس يوحنا ذهبى الفم : « ان داود النبى يستدعى فى مزاميره كل البرايا معاً إلى تسبيح الله تعالى وتمجيده ، حتى

المخلوقات المخيفة لانه يستدعى الحيات والتنانين وأما الخطاة فإنه لم يحصهم فإنه يقول : « سبحى الرب من الارض يا أيتها التنانين » مز١٤٨ : ٧ ، ولا يقول سبحوا الرب أيها الخطاة لان الخاطىء وحده يطرح ويطرد من صفوف المسيحيين والممجدين لله الخالق

وليس ذلك فقط بل ان صدقات الخاطىء وأعياده غير مقبولة لان الكتاب يقول : « لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة . رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى » أش ١ : ١٣-١٤ .

الخطية تعمل فى النفس عمل الصاعقة ، انها تهدم حياة الخطاة. أفسدت الخطية قلب داود كما يشهد هو عن نفسه « وأنا بليد ولا أعرف صرت كبهيم عندك » مز٧٣ : ٢٢ ، ابتت له قضيب الملك فى يده والتاج الثمين على رأسه والارجوان الفاخر على منكبيه ولم تعدمه شيئاً من ذلك لكنه كان فى الداخل مرذولا ومهاناً ، وهذا الامر بعينه يعرض للخاطىء .. له مركزه المرموق المحترم بين الناس، له مكانته فى كل الاوساط لكن نفسه أفسدتها الخطية وفى الداخل هو مملوء عظام أموات وكل نتن ونجاسة .

لماذا نرفض محبة الله ابوية سنين عديدة ..؟

ان زمان الحياة الذى مضى يكفينا لنكون قد عملنا ارادة الامم سالكين فى الدعارة والشهوات .. ١ بط ٤ : ٣ .

يكفينا تعبنا وتغربنا هذه السنين الطويلة عن الآب الحنون والصديق المحب . أين نختبىء من أمام الرب إلهنا الذى خلق السماء والارض والبحر وكل مافيها .. أفى البساتين والحقول التى زينها بالزهور الجميلة وجملها بالاثمار المختلفة لغذائنا ؟ أفى البحر الذى ألجه من أجلنا وبسطه لاجل معيشتنا وتجارتنا ؟ أفى الجبال والاودية تجرى فيها المياه تروى الظمأ ؟

ان السيد المسيح لايزال ينادى ، ارفعوا الحجر عن قلوبكم أيها الخطاة ، ارفعوا الحجر لتنظروا عظم نتانة مابداخلكم ، أرفعوا حجر الحقد والضغينة ، أرفعوا حجر الشهوة الرديئة الكريهة من قلوبكم المنبعثة نتانتها التى لاتطاق .

لما أعاد السيد المسيح الحياة الميت اختفت رائحة النتن . صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجاً ، خرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات فقال حلوه ودعوه يمضى .

هكذا يقيمنا الرب - ولو كنا أمواتاً بالخطايا ومربوطين

بالشهوات والادناس - بقوته المقدسة ويحلنا من خطايانا ويدعنا نسلك فى طريق البر والقداسة .

القصص التى نعرضها فى هذا الكتاب هى قصص منوعة عن عذارى ، سقطن ثم تبن التوبة الصادقة وأصبحن قديسات ويذكر عن تاريخ الكنيسة ، إنها قصص نتعلم منها ضرورة الاحتراس واليقظة والسهر . إن كنا سقطنا نقوم للحال ونتوب ، نهرب من الشرور كما نهرب من الحيات ولنصغ إلى قول الكتاب المقدس .

+ « اهرب لحياتك » تك ١٩ : ١٧ .
+ « احفظ نفسك طاهراً » ١ تى ٥ : ٢٢ .
+ « أما الشهوات الشبابية فاهرب منها » ٢ تى ٢ : ٢٢ .
+ « أيأخذ إنسان ناراً فى حضنه ولاتحترق ثيابه ، أو يمشى إنسان على الجمر ولا تكتوى رجلاه » أم ٦ : ٢٧ ، ٢٨ .

فى قصتى باتيسة وتاييس نرى درساً عملياً باهتمام الرهبان الكبار لانتشال النفوس الغارقة فى الخطية ونرى حكمة شيوخ البرية فى اختيار الآباء الكبار فى المعرفة والافراز (التمييز الروحى) لهذا الغرض .

فى قصة بائيسة نرى رحمة الله تتجلى معها نظير مافعلته من أعمال الرحمة قبل سقوطها وكيف دبرت العناية الإلهية طريقة لخلاصها... وتوضح قصة تايس خطر استهتار الامهات وكيف يجدرن بناتهن إلى الهاوية بسوء سلوكهن وعدم ظهورهن بالمظهر اللائق.

فى قصة القديسة مرثا نرى كيف أن مجرد ذكر الخطية يشع جداً فلم تحتمل مرثا المصرية صدمة كشف خطيئتها ومنعها من دخول الكنيسة ليلة عيد الميلاد، وأثر ذلك على نفسها فعزمت على التوبة للحال لما طردها ايبوذياكن الكنيسة باعتبارها إمرأة معروفة بسيرتها الرديئة... وأيضا نرى أن حياة التنعم والبذخ وأهمال وسائط النعمة ومحبة الاسترخاء والكسل قد تزدى إلى الاستهتار والسقوط.

فى كل هذه القصص المنوعة وغيرها من القصص الكثيرة تظهر رحمة الله لكل الناس الخطاة التائبين ومغفرة خطاياهم الكثيرة، وهذا مايشجعنا نحن الخطاة على الاقتراب من السيد المسيح على الفور لانه رحوم ومحب البشر ويحزل الغفران وهو الذى قال من يقبل الى لا أخرجه خارجاً، وتعالوا إلى ياجميع المتعبين والثقيل الاحمال وأنا أريحكم.

مصادر السير الواردة بهذا الكتاب

1) Stories of the Holy Fathers, E. A. Wallis Budge.

2) The Paradise of the Holy Fathers.

3) The Book of Paradise.

4) Les Saints d'Egypt, Cheneau.

5) The Saints of Egytp, O. Leary.

6) Synaxaire Arabe, René Bassé

(٧) السنكسار.

(٨) بستان الرهبان المطبوع.

(٩) المخطوط ٢٩٦/١٧٥ طقس بالمتحف القبطى.

(١٠) تاريخ الكنيسة للتنيح القس منسى يوحنا.

(١١) البوق الانجيلى.

تائبة من قيصرية فلسطين

نأتى هنا بذكر ما ورد فى القصص القديمة عن خاطئة كانت بقيصرية فلسطين وتابت ، وذكرت هذه القصه فى كثير من المراجع منها :

1) Stories of the Holy Fathers XX I X الفصل
2) The Paradise of the Holy Fathers P. II Page 138 - 140.

وقد وجدنا قصة أخرى مماثلة فى هذين المرجعين واكتفينا بهذه القصة وأتينا بها لأنها تبين ما تجره الخطية من الويلات والضيق والاضطراب والسقوط إلى أحط الدرك .

هى ابنة لأحد كبار رجال قيصرية فلسطين ، ابتعدت عن الله وسلكت طريق الغواية والشر وتدرجت فى الخطية والفساد حتى سقطت فى الهاوية .

استمرت حياة اللهو والدنس وظلت زماناً على هذه الحالة التعيسة تحيا حياة الإثم فى غير ما وازع حتى أتت ساعة إعلان خزيها وعارها وانفضاح علاقتها عندما بدأت تظهر عليها اعراض الحمل ولم تقدر أن تخفى جريمتها واضطربت اضطراباً كبيراً وأفشعر بدنها

واضطرب شريكها الشرير مرتكب الإثم لأن أمرها أصبح واضحاً وانكشفت الجريمة التى كانت فى الخفاء فلقنها هذا الشخص الذى سقطت معه فى الخطية أن تلقى التهمة على قارىء بالكنيسة ولاعجب إذا كان قد استباح لنفسه ارتكاب الإثم أن يختلق الافك والاكاذيب ، فليس له وازع يردعه عن الاسترسال فى شروره .

ولما انكشفت فضيحتها لدى أهلها ، أخذ أبوها يسألها فى مرارة الحزن أن تقر بجريمتها التى لاسبيل الى أخفائها وانكارها وهنا كاشفت والدها بأن تلقى الكنيسة هو الذى أعتدى عليها

وأشهر عن القارىء أنه هو المعتدى الأثيم وكان الناس يتقولون عليه،هذا هو الذى يعظ فى الكنيسة ويملأ اسماع الناس بأقوال الكتاب المقدس ، هذا هو خادم كنيسة الله ..!! ، وكان لابد أن يختار الاسقف ليتخذ من الإجراءات مايراه ضده حتى يرتدع أمثاله . وأجرى الأسقف تحقيقاً معه وطلب اليه أن يقر بالحقيقة ، لكن القارىء - وكان بريئاً - لم يشأ أن يعترف بأنه قد اقترف هذا الشر العظيم ولم يستسغ أن يتهم نفسه بجرم شنيع لم يفعله. فاغتاظ الأب الأسقف من سكوته وعدم اعترافه ووبخه قائلا : « ألا تريد أيها البائس الذى ارتكب كل هذا الشر

أن تقر بخطاياك ؟ » . أجابه القارىء : « انى أقر ياسيدى أنه لا علم لى بهذا الأمر ولم يطرأ أى فكر من جهة هذه الفتاة ولم ارتكب شراً قط ، والحال حكم الاسقف بقطع القارىء من درجته وبإقصائه عن خدمة الكنيسة . . .

أما القارىء فانه بعد ما صدر هذا القرار طلب تسليمه الفتاة فأجابه إلى طلبه وترجح لديه أن القارىء مذنب وأن قلبه لم يزل متعلقا بها ولولا ذلك لما طلب تسليمها اليه .

كان هذا القارىء يخاف الله ويتقيه ورأى تخليص نفس هذه المسكينة بعد أن سقطت . فأودعها أحد بيوت العذارى وطلب إلى رئيسته العناية بأمر حياتها الروحية . استمرت مدة وجيزة وبعدها كان لابد لها أن تجنى ثمار الإثم عاراً وهوانا فى هذا المكان

تعذبت الفتاة كثيراً وتعذر عليها أن تلد الطفل وكانت تعانى آلاما مبرحة وتصرخ من شدة العذاب الذى أصابها ، وما زالت على هذه الحالة والألم يزداد يوما بعد آخر إلى كمال سبعة أيام ، لم تستطع أن تنام طوال هذه المدة حتى أشرفت على الموت وكانت تصرخ وتقول : « ويل ويل لى أن موتى أصبح وشيكا وقد اتهمت زوراً قارىء الكنيسة .

سمعت رئيسة بيت العذارى ذلك وأبلغت الأمر على الفور إلى الأب الكاهن المشرف الروحى ، فلم يشأ أن يتسرع بإبلاغ الأسقف بل انتظر يومين آخرين ظناً منه أنه ربما تفيق من آلامها فتستطيع أن تتكلم بأكثر تفصيل وتفصح عن حقيقة الأمر لكن الحالة كانت تزداد سوءاً ولم تطق العذارى إحتمال رؤيتها تعانى هذه الآلام .

لم يكن هناك بد من إبلاغ الاسقف بما حدث وباعتراف الفتاة ببراءة قارىء الكنيسة الذى اتهمته زوراً . . . فأرسل الاسقف بعض الشمامسة إلى القارىء برسالة قال فيها :

« صلى إلى الله من أجل الفتاة التى اتهمتك زوراً لكى يخلصها الرب من اتعابها » لكن القارىء لم ينطق ببنت شفة . انه بعد التهمة التى لصقت به لم يفتح بابه لأحد بل كان معتكفا ملازما الصوم والصلاة حتى كشف الرب الحقيقة وظهرت براءته ولا شك أنه كان فى صلواته يطلب إلى الله أن يخلصها بمراحمه .

شاع هذا الامر فى المدينة وعرفت براءة القارىء فانطلق والدها إلى الاسقف وطلب اليه أن يقيم الصلاة لأجل نجاة ابنته

البائسة من الموت ، لكن رغم ذلك لم تنل الراحة من أوجاعها

حينئذ كلم الأسقف القارىء وقال له : يا استاسيوس (Eustathius) قم الآن لإنقاذ الفتاة فان عذابها لايطاق. صلى القارىء مع الأسقف صلاة طويلة وكان فى نهايتها أن خلصت الفتاة وشفيت أوجاعها وولدت طفلها .

وهكذا أعيد القارىء إلى رتبته وأكرمه الرب باظهار براءته، وأن الفتاة المسكينة تائبة التوبة الحقيقية وكانت تمارس كل قوانين التوبة فى أسهار فى الصلوات وأصوام متواصلة وظلت عابدة الرب بتية أيام حياتها حتى تنيحت بسلام .

+ + +

القديسة تايس

التائبة بالاسكندرية (١)

ان الحديث عن هذه القديسة التائبة نافع جداً ومشجع للنفوس الساقطة التى جرفها تيار الخطية لان مثل هذه القصة تثير الاشواق للرجوع إلى حضن الكنيسة ـ مهما تكن الخطايا ثقيلة ـ حيث تستقر النفوس وتستريح لانه لاراحة حقيقية إلا فى البعد عن الشر والالتصاق بالله وفعل الخير .

ميلادها ونشأتها

كانت تايس مسيحية لكنها كانت يتيمة الاب ، ربما منذ

(١) تكتب Thais, Thaisis أخذت عن مراجع كثيرة منها .

1) The Paradise of the Holy Fathers Vol. 1p. 140-142.
2) Stories of the Holy Fathers, Budge. ch. XXX p. 185.
3) Les Saint d'Egypte, Cheneau 1p. 394, 395 II p. 402, 403.

حداثتها ، ولم تكن أمها تسير باستقامة أمام الله وأهملت تربية ابنتها التربية المسيحية الحقة ، فلم تسهر على رعايتها وتعليمها بل بالعكس كانت تسلك سلوكا مغايراً للآداب المسيحية وكانت ابنتها بطبيعة الحال تتأثر بما تراه من أمور لا تساعد على طهارة النفس ، وهكذا قد جنت الام على ابنتها .

ان كثيرات من الامهات بتصرفاتهن وسلوكهن الردىء وملابسهن الغير المحتشمة يقدن بناتهن إلى حياة غير لائقة من حيث لا يعلمن ، يعثرن بناتهن وبدلا من تدريبهن فى طريق النقاء والعفاف يعثرنهن فيسقطن ضحايا استهتار الامهات ، هؤلاء المواتى قال عنهم السيد المسيح ، الويل لمن تأتى بواسطته العثرات ، خير له أن يعلق فى عنقه حجر الرحى ويلقى فى لجة البحر .

ان أم تايس لما رأت فى ابنتها مسحة من جمال وكانت تنظر إلى الناحية المادية ولم يكن لديها الغيرة على الفضيلة والطهارة والحياء ساعدت ابنتها حتى التحقت بعمل فى أحد الاسواق

العامة ، وكانت لدى الفتاة مزايا عديدة فقد كانت ذلقة اللسان ، لبقة الحديث وجذابة فى المعاشرات فضلا عن جمالها الساحر لدرجة كبيرة . لكن أبواب حواسها كانت بلا حراسة - فى العمل وخارجه - فاستباحت لنفسها الخطيئة رويداً رويداً حتى سقطت فى خطية الدنس.

+ + +

سقوط تايس

سقطت تايس السقطة العظيمة واستمرأت حياة اللهو والدنس وكانت تسوق الكثيرين من الاغنياء إلى الهلاك ، هؤلاء الذين بلغوا فى شهواتهم الجنونية حداً كبير حتى أنهم كانوا يضعون ثرواتهم تحت أقدامها ، وهكذا ذهبت كل محاسنها أدراج الرياح وفقدت فضيلتها وعفافها وكل شىء . . واشتهرت بالإسكندرية فى الدعارة وعدت من الساقطات .

القديس بيساريون الكبير ينقذ تايس

أصبحت موضع حديث الناس وبلغ خبرها إلى القديس بيساريون الكبير أحد شيوخ برية شيهيت الكبار .

وعلم كيف تسقط هذه الفتاة الكثيرين فى الخطيئة ، و فى كل يوم لها ضحايا كثيرون ، شباب ورجال ينحدرون إلى أعماق الخطية بسببها ، لقد هلكت وأهلكت الكثيرين .

فامتلأ غيرة ليخلص النفوس الثمينة التى اشتراها المسيح بدمه الزكى الكريم وطلب إلى الرب يسوع ببكاء كثير وبايمان راسخ أن يساعده على انتشال هذه المسكينة من النار . تزيا بزى علمانى وانطلق إلى مسكنها دون أن يدع أحداً يشك فى خطته وطلب مقابلتها وما أن دخل غرفتها - وكان ملازما الصلاة ليل نهار من أجلها - حتى بادرها بالقول : « ألا يوجد مكان آخر أكثر انعزالا أستطيع فيه أن أحدثك بحرية » فقالت له « يوجد لكن لا جدوى من الذهاب اليه لانه إذا كنت تستحى من الناس فانه فى هذه الغرفة لن يرانا أحد ، أما إذا كنت تخشى عين الله فليس عندى غرفة لايراك فيها » فتصنع بساريون الكبير العجيب وسألها : « هل تعرفين أن الله موجود وأنه توجد مكافأة للفضيلة ومجازاة عن الخطيئة ، فاذا كنت تعرفين

أنه يوجد حكم ودينونة كيف تتسببين فى هلاك هذا العدد الكبير من النفوس لانك من أجل هذه النفوس الكثيرة سيكون عقابك أكثر من عقابك على جرائمك » .

فهمت تايس مع من تتكلم وفهمت جيدا أقوال هذا الزائر العجيب وعلمت أنه إنما جاء ليخلص نفسها ، عرفت القصد من الزيارة فجمدت فى مكانها وضمت يديها ونظرت إلى اسفل فى حياء ولفزعها سقطت على الأرض وانفجرت باكية

« يا أبى ان السماء هى التى أرسلتك ، أنى أعلم أنه توجد توبة للذين يخطئون ، أريد أن اترك الحياة النجسة التى سلكت فيها منذ زمن بعيد ، أرجو أن تساعدنى على خلاص نفسى وسأطيع أوامرك بكل دقة ومهما قلت من أمر سأفعله » .

علمت تايس أن هذا الأب لم يكن إلا أحد خدام الله الذين كانت تعرفهم فى طفولتها الأولى ومثل الذين كانت تراهم

أحياناً حينما كانت تسير فى الطريق الكانوبى . . . أو شارع أرجيوس (١)

انتقال الفتاة من الظلمة إلى النور

بعد هذا الحديث الذى دار بين تايس والقديس بيساريون الكبير طلبت اليه مهلة بضع ساعات وقالت له: إنى سوف أذهب حيثما تريد وأفعل كل ما تأمرنى به ، فأعلمها القديس عن المكان الذى يمكن أن تقابله فيه ثانية ، وانصرف عنها والفرح المقدس يملأ قلبه ، وفقط الذين اعادوا نفوساً إلى الله من ظلام الخطية أو هاوية الرذيلة هم الذين يستطيعون أن يتذوقوا عذوبة التعزيات الغزيرة التى تفيض على نفوسهم من السماء .

---

(١) ذكر شينو فى كتابه « قديسو مصر » الجزء الثانى ص ٤٠٢و٤٠٣ أن الشارع Canopique (مأخوذة من كانوب — أبو قير) هو شارع ابو قير الحالى مع امتداده بشارع سيدى المتولى الخط الطوالى القديم . أما شارع Argeus الذى كان الشارع العرضى فربما كان شارع النبى دانيال ، وكانا أهم شارعين فى الاسكندرية القديمة ، وكانت تايس تسير فى هذه الشوارع .

اعلان توبتها

بعد أن انصرف الشيخ عنها تجلدت ومسحت دموعها وأخذت تجمع كل ملابسها الحريرية وامتعتها التى كسبتها عن طريق الخطية وفى وسط المدينة أمام جمهور كبير من الناس أحرقت كل ما كان معها ، وكانوا يظنون أنه قد أصابتها نوبة من الجنون — وقالت فى جرأة عجيبة :

« تعالوا ياجميع رفاق السوء وانظروا انى أحرق أمام أعينكم كل هداياكم وتذكاراتكم وكل ما جمعته فى حياتى الشريرة . . . »

انطلاق تايس إلى القديس بيساريون الكبير :

ان تايس بعد أن أحرقت هذه الأشياء وقطعت صلتها بماضيها الأثيم وكل أثر من آثاره ، وبعد أن أعلنت توبتها وانها سوف لا تعود إلى ذل حياة الدعارة الأولى وارتدت بدل الملابس الفاخرة ثياباً من خيش بالية وانطلقت إلى القديس بيساريون الكبير ليعلمها طريق التوبة حتى لا تعود إلى الشرمرة أخرى . أما هو فأخذها إلى أحد بيوت العذارى وطلب أن تعد لها قلاية صغيرة خاصة تتعبد فيها ليل نهار ، وأغلق بابها

تاركاً لها نافذة صغيرة، ومنها يقدم الراهبات لها طعامها وشرابها كما أوصى رئيسة بيت العذارى بشأنها وطلب أن يكتفى باعطائها رطل خبز جاف كل يوم وتعطى من الماء كل ماتحتاجه .

حينئذ قالت له تايس بماذا تأمرنى ان اصنع الى الله حتى يغفر لى آثامى ؟ ، أجابها القديس : « انك لست مستحقة ان تلفظى بشفتيك اسم الله أو أن ترفعى يديك نحو السماء لأن شفتيك غير طاهرتين ويديك ملطخة بالنجاسة . ارفعى بصرك إلى السماء واصرخى دائماً بغير فتور « يا من خلقتنى أرحمنى » .

قضت تايس فى قلايتها نحو ثلاث سنوات تمارس التقشف الشديد منفذة كل وصايا القديس .

مقابلة القديس بيساريون الكبير للقديس انطونيوس (١)

بعد هذه المدة انطلق القديس بيساريون الكبير إلى القديس أنطونيوس لأنه كان يشعر بعظم مسئوليته امام الله إزاء هذه النفس ـ لغرض التحدث معه فى أمر توبة « تايس » وليعرف منه هل سر الله بتوبة هذه المسكينة وغفرت لها خطاياها .

١) سبب هذه المقابلة ان القديس بيساريون الكبير كان تلميذا للقديس أنطونيوس مدة ليست قليلة .

جمع أب الرهبان تلاميذه وأمرهم أن يدخلوا مخادعهم ويصلوا بلا انقطاع إلى الله ليكشف أمر توبة تايس، فعكفوا على الصلاة أياما ، وبينما كان القديس بولس البسيط أقدم تلاميذ القديس أنطونيوس يتطلع نحو السماء رأى كرسياً ناراً لم يجلس عليه أحد بين كراسى القديسين ورأى ثلاثة ملائكة يحملون ثلاثة مصابيح يقفون أمام هذا العرش ، ورأى إكليلا بهياً نازلا عليه من فوق .

أما القديس بولس البسيط فلما رأى هذا المنظر قال : « ان هذا العرش لابد أن يكون لمعلمى أنطونيوس ، لكن أتاه صوت من السماء قائلا : « هذا العرش لتايس » .

نهض القديس بولس فى الصباح الباكر وانطلق إلى القديس أنطونيوس وأعلمه بالقصة التى علم بأمرها القديس بيساريون الكبير أيضاً . وأستأذن القديس بيساريون من القديس أنطونيوس فى الانصراف ومضى إلى بيت العذارى ليخرج تايس من قلايتها التى كانت حبيسة فيها لكنها ترجته فى حزن وانسحاق أن يدعها فيها إلى يوم مماتها . حينذاك قال لها الأب

« الرب صنع معك رحمة وقبل توبتك » قالت له القديسة : « انه من يوم أن دخلت إلى هذه القلاية وخطاياى أمامى فى كل حين كحمل ثقيل ، أصلى بانسحاق قلب وبكاء أن يصنع الرب معى رحمة كعظيم رحمته ... » اجابها الشيخ . « ولهذا غفر لك الرب خطاياك من أجل صدق توبتك ولانك سلمت نفسك كلية للسيد المسيح .

وان القديسة خرجت بعد ذلك من قلايتها ولم تعش مدة طويلة حيث قضت على الاكثر خمسة عشر يوما ، وكانت صحتها تضعف يوما فيوما مثل النبات الذي اجتثت جذوره فجأة ، يبتدىء يذبل ثم يجف ، ورقدت فى سلام الرب تاركة للأجيال مثلا رائعاً للتوبة ولظهور رحمة الله .

واشتهر اسم تايس عندما اكتشف احد الاجساد فى Antinoé ورجح أن يكون هو جسدها ، وشغل هذا الامر اهتمام كبار علماء الآثار لكنه ظهر أن نسبة هذا الجسد للقديسة مشكوك فيه. والاسم الذى كان مكتوباً على الجسد المكتشف هو

« Thaia » (١).

وعليه فلا يمكن الجزم برأى .

ويبقى ملاحظة أن القديس بيساريون الكبير Bessarion هو خلاف القديس « سيرابيون الكبير » Serapion الذى له قصة مماثلة ، ذكرت فى كتاب « The Book of Paradise » ص ٤١٣ كما ذكرت فى كتاب البستان الجزء الأول طبعة سنة ١٩٥١ ص ٩٤ وملخصها أنه سعى مرة لاختطاف خاطئة من النار ، توجه إليها وكان يتلو مزاميره وفى نهاية كل مزمور كان يقول يارب أرحم هذه المسكينة وردها للتوبة لتخلص فسمع الرب صلاته وإذا كانت قائمة بجانبه أرتعدت فرقاً وخرت على قدميه طالبة اليه أن يخلصها فأقامها ووعظها وأرشدها إلى طريق الخلاص وأرسلها أخيرا إلى دير للعذارى وسلمها للرئيسة حيث قضت بقية أيام حياتها فى بر وطهارة إلى أن تنيحت بسلام .

والخلاف بين القصتين ينحصر بالنسبة الأول فيما يختص برؤيا العرش الذى لم يجلس عليه أحد والذى كان فى وسط كراسى القديسين والذى رآه القديس أنبا بولس البسيط .

(١) انظر فى هذا الموضوع مجلة متحف Guimet الكتاب الثلاثين الجزء الثالث . وراجع « شينوده » الجزء الثانى ص ٤٠٢ و ٤٠٣ ، Antinoé هى قرية الشيخ عباده .

درس عنيف يلقنه
كبار آباء البرية لكل الأجيال

بعد الفراغ من هذه القصة نصمت فى دهش من تصرف الآباء الكبار حيال خاطئة والاهتمام كل الاهتمام بأمرها حتى اطمأنوا إلى توبتها الصادقة وخلصوها من النار .

الآب بيساريون الكبير يتعهد نفس تايس ، يسافر إلى مدينة الاسكندرية ليعظ الخاطئة ، يتكبد ثانية مشقات كثيرة فى السفر للقديس أنطونيوس بشأنها، يصلى الآباء الكبار مع الصغار من أجلها وأخيرا ينصرف القديس بيساريون الكبير بعد أن استطاع بنعمة المسيح أن يخلص نفساً من الموت .

من أجل فتاة ساقطة بالاسكندرية تكلفت جهود كثيرة لانتشالها ، وما أحوجنا إلى من يلهب قلوبنا بالعظات النارية ويختطف النفوس من فم الأسد .

ان كثيرين من الآباء الكبار فعلوا مثل ذلك فى القصة التالية قصة « بائيسة » ترى كيف أن شيوخ بريه شيهيت لما علموا بأمر سقوطها فى الخطية حزنوا حزناً عظيما وصلوا من أعماق قلوبهم ليرحم المسكينة .

جميل أن يحس سكان البرية بمشقات النفوس وجميل أن يصل الشيوخ من أجل بائيسة وكان يمكن أن ينتهى الأمر إلى هذا الحد ويكون سنيه محموداً فما كان لسكان البرية - حسبما يرى الكثيرون أن يفعلوا أكثر من ذلك . لكن تلك القلوب العامرة بمحبة السيد المسيح تخطت ماهو فوق ذلك وداست كل الحواجز والعوائق ، حطمت كل الصخور والعثرات التى فى الطريق فى قوة وجرأة وشجاعة ، واتخذ الرهبان موقفاً إيجابياً حتى أخرجوا الفريسة من فم الأسد .

لقد اجتمع الشيوخ بسبب بائيسة وقرروا انتداب أفقم الشيوخ وأكثرهم إفرازاً وحكمة وهو القديس يحنس القصير لكى يبحث عن بائيسة ويساعدها على خلاص نفسها ، ومن ناحيتهم كانوا يجاهدون معه فى الصلوات مدة غيابه حتى يرد الخاطئة عن طريق ضلالها .

وهكذا انطلق القديس يحنس القصير سعياً وراء إنقاذ بائيسة.

+ + +

القديسة بائيسة التائبه

ولدت القديسة بائيسة فى منزل من عائلة مشهورة بالتقوى والثراء - فى القرن الرابع - رباها والدها فى خوف الله وكانت منذ صغرها محبة للفقراء والمساكين متعبدة ليل نهار تواظب على الصلاة والصوم :. انتقل والدها إلى الرب وتركا لها ثروة كبيرة فجعلت فى قلبها أن تضع كنزها فى السماء حيث لا يفسده سوس ولا يسرقه سارقون . فكانت توزع صدقات كثيرة على الفقراء والمحتاجين وكانت تقوم بضيافة الغرباء وخدمتهم .

وذاع صيت فضائلها وبالاخص الصدقات الكثيرة والهبات المتنوعة التى كانت تهبها ، فى كل الاوساط حتى بين سكان برية شيهيت لان حياتها كانت كالمصباح الموضوع على المنارة والذى يضىء لكل الناس .

استمرت على ذلك زماناً حتى صرفت كل مقتنياتها... ويبدو انها كانت ترغب فى أن تتجه بعد ذلك إلى أحد ديارات أو بيوت العذارى وكانت كثيرة فى ذلك الزمان، كقول السيد المسيح للشاب الغنى (الذى تقدم اليه قائلا : أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل

لتكون لى الحياة الابدية) ، إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى » (١) . بينما كانت مبتهجة بالسلام الذى يفوق كل عقل ، وبينما كان الهدوء والسكينة يخيمان على حياتها إذا بالشيطان عدو كل بر يرى محصول القمح الوافر خالصا من كل شائبة، فأراد أن يلقى إلى وسطه الزوان ليفسده ، ونصب الفخاخ لإسقاطها واستطاع بعض الغرباء عن المسيح - ذئاب خاطفة فى ثياب حملان - ودخلاء ممثلين من غش إبليس ومكره أن يستميلوا قلبها إلى الشر فزينوا لها طريق الغواية تحت ستار الترويح عن النفس وصرف السآمة والملل ، ونتيجة للتراخى والتهاون تكاسلت فى الصلوات وتلاوة التسابيح وانقطعت عن الصوم والسهر فى العبادة، فأخذت الافكار الشريرة تحاربها وفقدت السيطرة على ضبط النفس وكانت تتجاوب مع الافكار الدنسة حتى سقطت فى الهاوية .

إنطفأ فجأة السراج الوهاج ، خبا نور فضائلها وصارت

تتخبط فى الظلام ، وعلى قدر ما كانت متقدمة فى الفضائل أمعنت فى ارتكاب القبائح ، وأصبح قلبها الطاهر مسكناً للشياطين .

وصل هذا النبأ المؤلم إلى شيوخ برية شيهيت القديسين فحزنوا حزناً عظيماً وأقاموا الصلوات من أجلها وانتدبوا أقدم الرهبان القمص يحنس القصير لمقابلتها ومساعدتها على خلاص نفسها وانقاذها .

أطاع القديس - وهو المثل الاعلى فى الطاعة كما سيأتى فى سيرته - وانطلق حيث تقيم .

وعند أن علم القديس بخبر سقوطها لم يهدأ له بال وكان يصلى طالباً إلى السيد المسيح أن يمده بمعونة من عنده حتى تخلص هذه النفس ، ولما سار اليها كان يتلو صلوات المزامير ويستغيث بمراحم الرب .

وما زال فى طريقه حتى وصل إلى سكنها وطرق على الباب وقال للبوابة اعلمى سيدتك بقدوم ثم دخل اليها وهو يرتل : إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لانك أنت معى.
نظر اليها وقال : لماذا استهنت بالسيد المسيح بهذا الاقتدار

وأتيت هذا الامر الردىء ؟ ، فارتعدت وذاب قلبها من تأثير كلام القديس ، أما هو فأحنى رأسه إلى الارض وبكى بكاء مراً ، فقالت له « ما الذى أبكاك ؟ » أجابها قائلا : « لأنى أعاين الشياطين تلهو على وجهك فلهذا أنا ابكى عليك » قالت له : « هل لى توبة » أجابها : نعم ، ولكن ليس فى هذا المكان ، فقالت له : « خذنى إلى حيث تشاء » ، فانصرف من عندها ولحقت به مسرعة حيث دخل الاثنان البرية ، ولما أمسى الوقت قال لها: « أرقدى هنا ورقد هو بعيداً وقام ليصلى صلاة نصف الليل فشاهد عموداً من نور نازلا من السماء متصلا بالارض وملائكة الله حامين نفسها ، فاقترب منها فوجدها قد ماتت - فألقى ذاته على الأرض وصلى الى الله صلاة طويلة بسببها فسمع صوتاً قائلا: ان توبتها قد قبلت فى الساعة التى تابت فيها أكثر من الذين تابوا سنين كثيرة ولم يظهروا حرارة فى توبتهم مثل هذه القديسة.

وبعد مادفنت مضى وأعلم الشيوخ بما جرى فمجدوا الله وعظموا اسمه القدوس ، وتعيد لها الكنيسة فى يوم ٢ مسرى .

القديسة مرثا المصرية

فى القصة الاخيرة التى نعرضها فى هـذا الكتاب نجد أن القديسة مرثا المصرية لما منعت من دخول الكنيسة ليلة عيد الميلاد ، ولما رأت تجمع الناس حولها ، قلوبهم فرحة متهللة والكنيسة مزدانة متألقة بالانوار ، وهى تقف خارج الباب يمنعها الايبوذياكن من الدخول ثم يحضر الاسقف بناته ويفاجئها بقوله : « أما تعلمين ان بيت الله مقدس ولا يدخله غير طاهر ؟ » ان مشاعرها امتزت هزاً عنيفاً لهذا الفرز من الجماعة وللحال نخس قلبها وأعلنت توبتها جهاراً وصارت القديسة مرثا المصرية تعيد لها الكنيسة وتذكر اسمها فى السنكسار .

ولدت فى مصر من أبوين مسيحيين غنيين وسارت سيرة منحرفه مذمومة حتى انها كانت تخالف جهاراً الوصية السادسة ، وحدث انها أرادت أن تذهب للكنيسة ليلة عيد الميلاد ، ولما توجهت للكنيسة وهمت بالدخول منعها الايبوذياكن الكنيسة وحصلت بينهما ضجة سمعها الاسقف فأتى إلى الباب ليعلم السبب فلما رآها قال لها : « أما تعلمين ان بيت الرب مقدس ولا يدخله غير طاهر؟ فصدمت بهذا الكلام صدمة عنيفة وتأثرت لساعتها بالغ التأثر وبكت بشدة وقالت : « أقبلنى أيها الآب فانى تائبة من هذه اللحظة ومصممة على عدم العودة إلى الخطأ ، فقال لها : إن كان الأمر حقاً كما تقولين فاحضرى ملابسك الحريرية وزينتك الذهبية ، فمضت بسرعة وحملت كل ما كان لها وأتت به إلى الآب الاسقف فباعه ووزع ثمنه على الفقراء والمعوزين ، ثم

ألبسها الشكل الرهباني وأرسلها إلى دير الراهبات فجاهدت جهاداً عظيماً وقامت بعبادات كثيرة، وكانت تقول في صلاتها: « يارب ان كنت لم احتمل الفضيحة من خادم بيتك فلا تفضحني أمام قديسيك وملائكتك .

وبعد أن استمرت قائمة في جهادها العظيم مدة خمس وعشرين سنة متوالية تنيحت بسلام ، وتعيد لها الكنيسة في ٣ بؤونه .

بركة صلاتها تكون معنا آمـــين